كلاسيكيات مُبسطة

الإخوة كارامازوف

فيودور دوستويفسكي



روسومات
هيلين باناي

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

BC04_TBK_COVER ar.indd1 All Pages

الغلاف الأمامي


كلاسيكيات مُبسطة
الإخوة كارامازوف
فيودور دوستويفسكي
رسومات
هيلين باناي
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

حقوق الطبع والنشر



للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

تحديد مسئولية / إخلاء مسئولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والناتجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسئولية ونُخلي مسئوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمّل أي مسئولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

الطبعة الأولى 2024

الإخوة كارامازوف

فيودور دوستويفسكي



مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
not just a Bookstore

الشخصيات

أسرة كارامازوف



فيودور كارامازوف

رب الأسرة



سمردياكوف كارامازوف

الابن



ديميتري كارامازوف

الابن



إيفان كارامازوف

الابن



ألوشا كارامازوف

الابن



كاترينا إيفانوفا

خطيبة ديميتري



جروشينكا ألكساندروفنا

صاحبة الحانة



زوسيما

رجل الدين



جريجوري

خادم أسرة كارامازوف

الفصل الأول

في مدينة سكوتوبريج الجميلة، كان فيودور معروفًا بين أهلها، لكنه لم يكن يحظى باحترامهم، فبرغم منزله الكبير وثروتـــه الضخمـــة، كان يشتهـــــر بين النـــــاس بقســـوته.



كــــان فيودور يهوى المراهـــنة، ويعشــق المال أكثر من حبه لأولاده الأربعة.

عندما كان شابًا، أسر قلب فتاة ثرية شابة تدعى أديلايدا، بينما رفضته أسرتها عندما استشعرت أنـــه شخص غيـــر مؤتمن، لكن أديلايدا تجاهلت تحذيرات

أسرتها، وتزوجته وأنجبت منه ابنًا يدعى ديميتري.



لم يهتم فيودور بهذا الرضيع، بل فضل أن يقضي وقته في المراهنة بصحبة أصدقائه. وعندما باغت الموت أديلايدا، لم يول فيودور أي اهتمام لديميتري.

ولما رأت بيوتر، ابنة خالة أديلايدا، إهمال الأب لابنه ديميتري، وكانت بيوتر مقربة من أديلايدا، عرضت أن تربي ديميتري بنفسها، ولم يجادلها فيودور في الأمر، وهكذا تربى ديميتري بعيدًا عن والده، ونشأ في منزل تغمره السعادة والحب ولا يسمع عن والده إلا بين الحين والآخر، ورغم نشأة ديميتري السعيدة، فإنه نشأ وهو ممتلئ بالغضب من والده، إذ لم يكن يفهم لماذا تخلى عنه.

بعد سنوات قليلة تزوج فيودور ثانية من شابة بريئة تسمى صوفيا، لم تكن قد سمعت بالحكايات التي تروى عن سلوكه الشائن. وقعت صوفيا في حبه، لكن برغم ذلك، لم يستطع فيودور أن يكون زوجًا صالحًا، وظل يقضي أيامه في الحانات ويتغيب عن زوجته ليالي متواصلة.

رزقت صوفيا بولدين، فقد وُلد إيفان أولًا، وبعد عام آخر جاء ألوشا. أحبت صوفيا ولديها بشدة وكانت تحميهما عندما يعود فيودور إلى المنزل وهو ثائر من الغضب، وفي نهاية المطاف باتت معيشتها مع فيودور مجهدة لأعصابها، فوقعت فريسة للمرض، ولما شعرت باقتراب نهايتها، كتبت لصديقتها تتوسل إليها بأن تأخذ إيفان وألوشا لكي تربيهما تحت رعايتها هي وزوجها.

وللمرة الثانية أُخِذَ ابنا فيودور منه، وللمرة الثانية أيضًا لم يهتم.



استمرت حياة فيودور كما كانت دومًا، فلم يكن يهتم سوى بأمر واحد فقط، وهو إنفاق المال الذي ورثه من زوجتيه ببذخ على الحفلات.

وبعد سنوات قليلة، لجأ إلى خادمه جريجوري، الذي عانى كثيرًا بسببه، وأعطاه ابنًا رضيعًا. وأخبره بأن الولد يسمى سمردياكوف وأنه بحاجة للرعاية، كان

جريجوري يعلم أن هذا الولد ابن فيودور، لكن لا يعرف أحد من كانت أمه.

كان جريجوري رجلاً رقيـــق القلب، وشديد الإخلاص لأسرة كارامازوف ولسيده، لذلك قَبِلَ بسرور هو وزوجته أن يربيا الطفل، خاصة أنهما لم يرزقا بأطفال.



وهكذا كان سمردياكوف هو الابن الوحيد من بين أبناء فيودور الذي تربى في منزله، ومع هذا فلم يكن يعامله كابن له، بل كخادم. ولم يظهر فيودور أية عاطفة أبوية تجاه الولد، بل كان يأمره بتنفيذ المهام كما يأمر جريجوري.

وبرغم أنه يعرف والده أكثر من إخوته الأكبر سنًا، فإن سمردياكوف نشأ وهو يشعر بالحقد؛ لأنه لم يترب بعيدًا عنه مثل إخوته.

الفصل الثاني

كبر ديميتري وإيفان وألوشا وصاروا شبابًا، وتزايد فضولهم بشأن أبيهم. وبمرور الوقت كاتبوه وكانوا يزورونه في مدينة سكوتوبريج، ووجد الإخوة أن أباهم لم يتغير كثيرًا منذ طفولتهم، فلا يزال يقضي أغلب وقته في الحانات أو في منزله حيث يقيم الحفلات الصاخبة. كما تعرف الإخوة على بعضهم بعضًا.

وفي نهايـــة المطـــــاف استقر كل من ديميتري وإيفان وألوشا في سكوتوبريج.

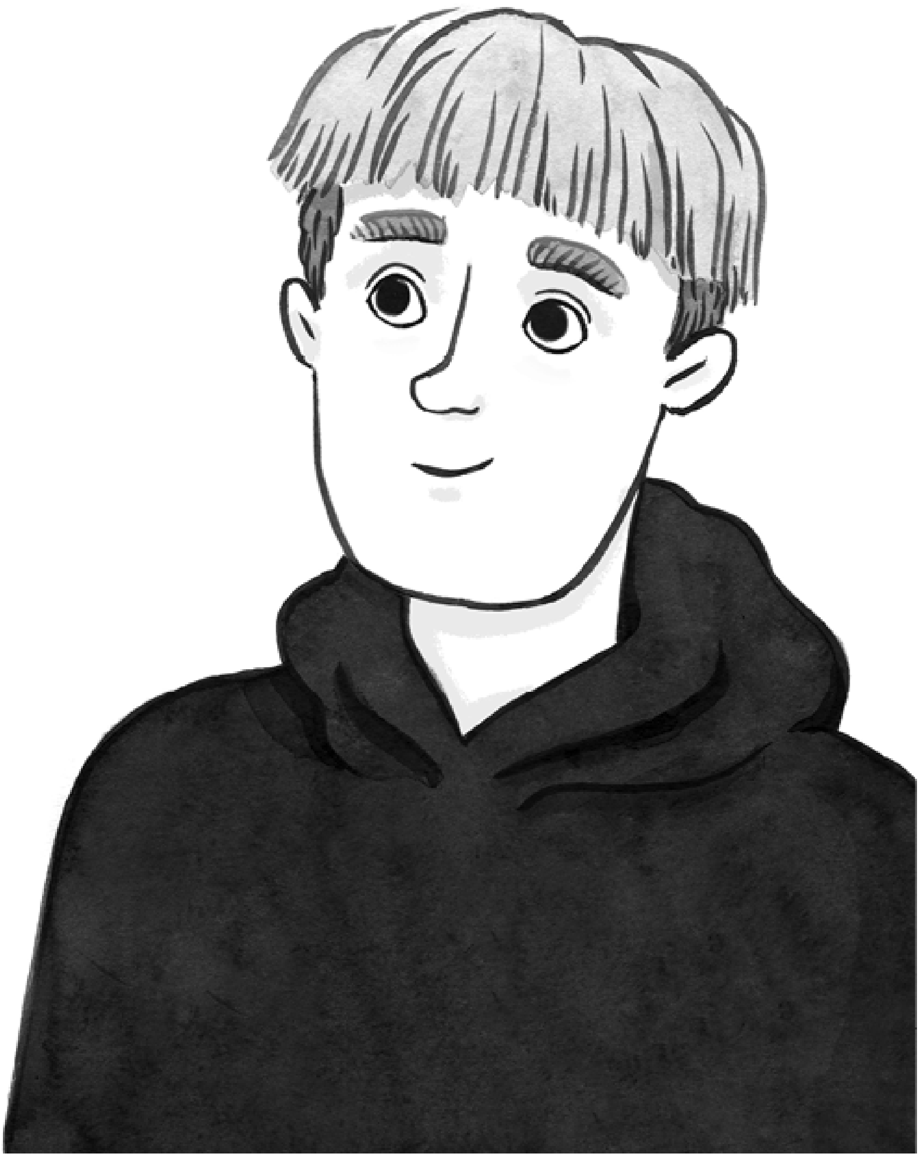
قضى ديميتـــري، أكبر الإخوة سنـًا، فتـــرة خدمته في الجيـــــش، وكان طويلًا وقد ورث ملامـــح والده الوسيمة، لكنه أيضًا ورث الكثير من خصاله البغيضة، فكان يحب أن يقضي وقته وينفق راتبه من الجيش في الحانات، ولا يبقي معه سوى القليل جدًا من المال. وبرغم أنه لا يتذكر والدته، فإنه يعلم أنها سليلة أسرة ثرية. واكتشف أنها عندما توفيت، تركت له ثروة كبيرة، وكان متأكدًا من أن والده يستأثر لنفسه بهذه الثروة، ولذلك عزم على إيجاد طريقة لكي يحصل على حقه الشرعي. ولهذا السبب كثيرًا ما كان فيودور وديميتري يتجادلان.



أما إيفان فكان الأخ الأكثر ذكاء بين إخوته، فقد التحق بالجامعة وفي طريقه لأن يصبـــح محاميًا ناجحًا.



كانت قامته أقصر من قامة إخوتـــه، ويتســم بوجه ينم عن الرقـــة والمـــــودة، وكان يشتاق لأن يصبح فردًا في أسرة حقيقية، لكن لمَّا عرف والده، تملَّكه الإحباط؛ فقد كان فيودور فظًّا وغير جدير بالاحترام، وكذلك لم يكن ذكيًّا. اضطر إيفان لأن يعتمد على إخوته لكي يشعر بشيء من الانتماء.



أما ألوشا فقد كان طويل القامة مثل ديميتري، لكنه لم يكن يتمتع بقوة إخوته. وكانت ملامحـــــه تشبه ملامـــح والدته بالضبط وتميـــــزه عن بقية إخوته الذين ورثوا شـــــعر فيودور الداكن وعينيــه الداكنتيـــــن. كان ألوشا الابن الأكثر تسامحًا بين إخوته، وقد تدرب لكي يصبح أحد رجال الدين تحت إرشاد رجل الدين المسمى زوسيمـــــــا. وبرغم تصرفات والده، فإنه كان يداوم على زيارته، حيث أراد أن يساعده ويساعد إخوته على إيجاد السعادة.

ولهذا السبب دعا ألوشا والده وديميتري وإيفان إلى دار العبادة لكي يتحدثوا مع رجل الدين زوسيما، فكان يرى أنه إذا كان هناك أي شخص قادر على حل خلافهم الأسري فهو هذا الرجل العجوز المتدين الطيب.

جلس زوسيما منحنيًا في جلسته فوق كرسي خشبي موضوع في ركن غرفة صغيرة حجرية، وقد ضم يديه في حجره، بينما وقف ألوشا إلى جواره في حال احتاج إليه في أي شيء، ومال إيفان مستندًا على الجدار، وهو يراقب والده وهو يسير في الغرفة جيئة وذهابًا ما بين الباب والنافذة الصغيرة. صار فيودور ضئيل الجسم، بعد أن كان وسيمًا فيما مضى، لكن السنوات الطويلة التي قضاها في الحفلات والليالي الساهرة جعلته يشيخ قبل أوانه، وبدا الغضب واضحًا في عينيه.



كانوا جميعًا ينتظرون مجيء ديميتري لكي يبدأوا الحديث. صاح فيودور: "أين هذا الولد الأحمق؟ من الواضح أنه لا يحترمك يا سيدي زوسيما".

استخف إيفان بكلام والده قائلًا: "إذا كان أحد بيننا لا يعرف معنى كلمة "احترام" فهو أنت".

برغم أن إيفان وافق على حضور هذا اللقاء، فإنه كان يراه مضيعة للوقت، فهو لم يكن واثقاً بقدرة رجل الدين على حل مشكلاتهم،أو تقديم المساعدة، ولم يؤمن أيضًا بإمكانية تغير والده.

أشاح فيودور بيده في وجه إيفان قائلًا: "أعتقد أننا أمهلنا ديميتري وقتًا كافيًا، ربما من الأفضل أن ننهي هذا اللقاء...".

في تلك اللحظة انفتح الباب ودخل ديميتري وهو ينظر في أنحاء الغرفة، وينقل بصره بين والده وكل واحد من إخوته، وكانت لحية ديميتري كثيفة وكثة وتملأ

وجهه حتى بدا كأنه لم يغتسل منذ أيام.

قال ديميتري وهو يلتقط أنفاسه: "معذرة على تأخري، فإن والدنا الحبيب أخبرني بموعد آخر، ولولا أن سمردياكوف أخبرني بمكانكم، لما لحقت بهذا اللقاء على الإطلاق".

ضحك فيودور في خبث، فقد وافق فقط لكي يوقف إلحاح ألوشا عليه، وعندما أخبر ديميتري بموعد آخر كان يأمل ألا تنعقد المقابلة ويقع اللوم على ديميتري.

تنهد إيفان، فقد كانت تصرفات والده مرهقة لكنها متوقعة.

قال ألوشا: "هل يمكننا أن نبدأ؟".

وقف زوسيما في تؤدة، ومد ألوشا ذراعه لكي يستند عليها، وقال زوسيما بصوت متهدج: "أخشى أنه ليس لديَّ ما أقدمه، أعتقد أن كلًّا منكم يعرف خطأه، ويفهم السبب في عدم اتفاقكم، وعليكم أن تبحثوا في نفوسكم لكي تتوصلوا إلى حل المشكلة".

صفق فيودور بيديه قائلًا في سخرية: "أوه! رائع جدًّا! لقد ساعدنا كلامك هذا!".



احمر وجه ألوشا من شدة الحرج، فقد كان زوسيما بمكانة والد له أكثر بكثير من والده الحقيقي فيودور، وراعه ما قد يعتقده رجل الدين عن أسرته، وبدلاً من أن يجيب، مال رجل الدين على ذراع ألوشا، وهبط على ركبتيه وقبَّل الأرض إلى جوار قدمي ديميتري، ثم غادر الغرفة بصحبة ألوشا.

اندهش ديميتري من تصرف رجل الدين، وسأل: ''لماذا فعل هذا؟''.

حرك إيفان كتفيه في حيرة وقال: ''من يدري؟ ربما ألوشا هو الأجدر بالجواب''.

صاح فيودور غاضبًا: ''يا لها من مضيعة لوقت الصباح!''.

سأله ديميتري بابتسامة هازئة: ''ما الذي ضيعته إذن يا أبي؟ إن الحانات لا تفتح في هذا الوقت''.

اقترب فيودور من ابنه الأكبر، وانتصب إيفان في وقفته استعدادًا لكي يحجز بينهما في حال بدآ يتقاتلان.

همس فيودور إلى ديميتري: "لماذا لا تذهب وتقضي بعض الوقت مع خطيبتك؟ فلا نريدها أن تعرف بشأن الليدي الأخرى، أليس كذلك؟".

وقبل أن يظهر على ديميتري أي رد فعل، خرج فيودور سريعًا من الباب.



الفصل الثالث

كان ديميتري مخطوبًا لشابة تسمى كاترينا إيفانوفا، وهي ابنة قائده العسكري عندما كان يخدم في الجيش. وكان مغرمًا بكاترينا، لكنه لم يفكر في الزواج منها إلا بعدما ورثت ثروة كبيرة من أجدادها.

كانت كاترينا جالسة تمشط شعرها الداكن الطويل في مرآة الردهة بمنزل خالتها في مدينة سكوتوبريج. فقد جاءت لكي تمكث معها لتكون قريبة من ديميتري ولكي تشرف على الاستعدادت لزفافها.

كان ديميتري من أوسم الضباط في وحدة والدها، واعتقدت كاترينا أنها أوفر الفتيات حظًّا في الدنيا عندما طلب ديميتري الزواج بها، وخُطبا منذ شهور. لكن برغم أنها كانت تسأله في كل يوم عن موعد عرسهما، فإنه لم يحدد موعدًا.



ومنذ أن انتهت خدمته في الجيش، شعرت كاترينا كأن ديميتري قد ابتعد عنها.

وضعت فرشاتها وتنهدت عندما رأت انعكاس وجهها على المرآة، وقالت: "أنا واثقة بأن ديميتري قال إنه سوف يأتي هذه الليلة، أين هو إذن؟ ولماذا استغرق اللقاء في دار العبادة كل هذا الوقت".

قـادت الخالة ابنة أختهـــا، كاترينا، وأجلستها في غرفة الجلوس وأشعلت نار المدفأة، وهي تقول في حنق: "أعتقد أن كُلًا منا تعرف أين هو".



هندمـــت كاترينـا فستانها الحريـــري وعقدت ذراعيهـــا وهي تقـــول: "لن أستمع إلى هذا الكلام مرة ثانية يا خالتي، لقد قلت لكِ إنني لا أصدق هذه الشائعات".



لقد سمعت خالة كاترينا حكايات بأن ديميتري يقضي كل وقته مع صاحبة الحانـــــــــة التي تسمى جروشيـــــنكا ألكساندروفنا. كانت حانة جروشينكا ممتلئة دائمًا بالرجال ممن يحبون صحبتها، لكن أكثر من تفضل صحبته من بينهم هو ديميتري.

وبعـــد ســـــاعة أخرى من الانتظار، وصــــل ديميتري إلى منزل خالة كاترينا أخيرًا، وكان لا يزال غاضبًا لأن اللقاء مع والده في دار العبادة لم يكن كما كان يأمل؛ حيث كان يأمل في أن يتحدث رجل الدين زوسيما مع فيودور ويقنعه بأن يعطيه حقه من المال، لكن بدلًا من ذلك قبَّل رجل الدين المسن الأرض عند قدمي ديميتري.

سألته كاترينا في عذوبة وهي تأخذ معطفه: "كيف جرى اللقاء؟ لا بد أن لديك الكثير لكي تحدثني عنه، فقد تأخرت في القدوم لرؤيتي".

صب ديميتري لنفسه شرابًا أخذه من الطاولة الصغيرة المجاورة للمدفأة وهو يقول: "كان اللقـــاء بلا أي جدوى، فذهبت إلى الحانة". سحبت كاترينا نفسًا

عميقًا، وشعرت بالراحة لأن خالتها كانت قد غادرت الغرفة ولهذا لن يتسنى لها أن تلومها قائلة: لقد قلتُ لك هذا.

سألت كاترينا: "اعتقدت أنه يمكننا أن نتحدث عن الزفاف". جلس ديميتري فوق كرسي مريح ومد رجليه أمامه.

وسألها متأملًا: "هل ما زلت ترغبين في الزواج مني يا كاترينا؟ ربما قد تسرعنا في خطبتنا".

بدأ الذعر يدب في نفـــس كاترينا، فقد كانت تعلم في قـــرارة نفسها أن ديميتري قد غير رأيه بشأن الزواج، لكنها لم ترد أن تعترف بهذا، فأجابته وهي تتظاهر بالسعادة: "كلام فارغ! في الحقيقة لديَّ مهمة لا أستطيع ائتمان أحد على القيام بها سوى خطيبي".

أمسكت كاترينا حقيبتها وأخرجـــــت محفظتها وناولت ديميتري مبلغًا كبيرًا من المال، وقالت له: "أريدك أن تضع هذا المال في المصرف باسمي، فقط قل لهم اسمي وأعطهم النقود، وسيعرفون ما يفعلونه".



أخذ ديميتري المال ووضعه في جيبه الداخلي، لقد كانت حياته حتى الآن ممتلئة بالغضب والإحباط، فقد نشأ من دون أم، ووالده شخص مريع. وكانت كاترينا هي

فرصته ليصبح جزءاً من عائلة ثرية وسعيدة ولكي يلقي الماضي وراء ظهره، لكن لماذا يساوره الشك الآن؟

وأخيرًا أجابها: "بالطبع، سوف أذهب إلى المصرف في الصباح".

الفصل الرابع

وقفت جروشينكا ألكساندروفنا في ركن حانتها مبتسمة، وكانت الحانة تعج بالأشخاص الذين يحظون بوقت ممتع، كما هي الحال في أغلب الليالي، وصناديق الدفع في حانتها تفيض بالأموال. كانت تعلم أن زبائنها يتكلمون عنها، لأنه من غير المعتاد لامرأة شابة أن تكون هي صاحبـــــة العمــل. لكن جروشينكا لم تبال، وصففت شعرها الأشقر تصفيفة تلفت الانتباه، وارتدت ملابس زاهية، وقضت أمسياتهـــا في التحدث مع زبائنها.

ورغم أن جروشينكا كانت تحب حانتها، لم تكن تلك هي الحياة التي تخيلتها لنفسها. فمنذ سنــوات قليلة كانت مخطوبة لضابط بولندي يدعى موسيالوفيتش، وأحبته كما لم تحب أحدًا من قبل، لكنه تركها دون أن يقول أي شيء، وحينها بدأت العمل في الحانة، وأخذت تدخر الأمـــــوال حتى أصبح لديها ما يكفي لشراء الحانة، وعملت باجتهـــــاد لكي تنسى حبهــا الضائع، وشغلت وقتها في إيجاد أحباء جدد.



صاحـــت جروشينكا عندمـــــا رأت ديميتري كارامازوف الذي سرعان ما أصبح زبونها المفضل والأكثر ترددًا على الحانة: ’’ديميتري! اعتقدت أنك ذهبت إلى المنزل هذه الليلة‘‘.

بعد أن ترك ديميتري كاترينا أراد أن يعود إلى شقته، لكن ألحت عليه فكرة أن يذهب لرؤية جروشينكا ثانية، فمنذ أول ليلة رآها فيها، شغلت جروشينكا كل تفكيره، فقد كان حبه لها أقوى من أي شعور أحسه تجاه كاترينا، فالأخيرة كانت تَذْكِرتَه إلى حياة آمنة ومستقبل ميسور، لكن جروشينكا هي ما يهواه قلبه.

ولأن جروشينكا أرادت أن تحمي قلبها من التعرض للأذى على يد رجل آخر، فقد حاولت إخفاء حقيقة مشاعرها تجاه ديميتري، لكن ديميتري كان يعرف أن جروشينكا تسعد بصحبته.

قال ديميتري: ’’جروشينكا، اتركي العمل الليلة كإجازة، وتعالي لتناول العشاء معي‘‘.

ضحكت جروشينكا قائلة: "لا يمكنني ذلك، هناك سببان كبيران يمنعانني؛ الأول: أنت مخطوب لامرأة أخرى، والثاني: ليس لديك ما يكفي من المال لكي تصطحبني لتناول العشاء".

حدق ديميتري في عيني جـــــروشينكا الزرقاوين بلـــــون أعماق البحر، وشعر فــــي تلك اللحظة بأنه قد يفعل أي شيء لكي يكون معها، وعلم أيضًا أنه لا يستطيع أن يبقى مخطوبًا لكاترينا.



وعلى الفور قال: "أحضري لي قلمًا وورقة". وعندما ناولته مايريد، كتب رسالة لأخيه ألوشا يطلب منه أن يذهب إلى كاترينا لكي يفسخ الخطبة، فهو يعلم أنه لا يوجـــد شخص أكثر لطفًا منه في الدنيا لتوصيل مثل هذا النبأ.



ثم وضع يده في جيبه وأخرج المال الذي أعطته إياه كاترينا، فلم يكن شعوره بالذنب بسبب سرقته لمال كاترينا بمثل قوة حاجتـــه لأن يبقى إلى جـــوار جروشينكا.

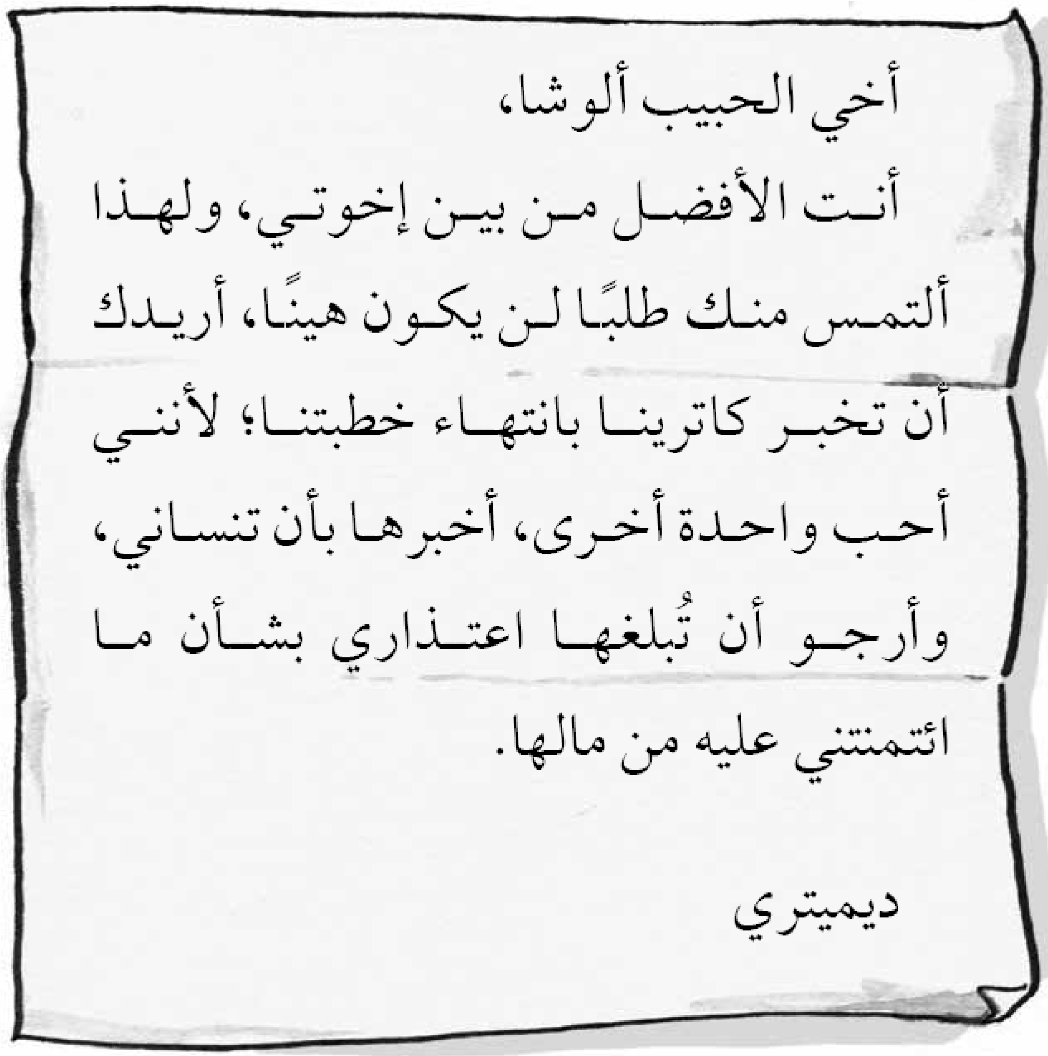
وصاح قائلًا: "هذا المال يكفي لتناول العشاء والعربات والرقص طوال الليل. والآن هل تقبلين؟".

ضحكت جروشينكا في سعادة، فلقد سبق وحاول العديد من الرجال في هذا المكان أن يثيروا اهتمامها، لكن لم ينجح أحد في ذلك حتى الآن. لكنها وافقت أخيرًا على عرض ديميتري لتناول العشاء، وأمسكت يده وتركته يقودها إلى أرقى المطاعم في المدينة.

***

في دار العبادة، كان ألوشا يصلي. وقد مرت أيام قليلة على اللقاء الذي أجراه مع أسرته، وأصيب خلالها رجل الدين زوسيما بالمرض. وقد كان زوسيما رجلاً طاعناً في السن، حتى أن الطبيب لم يعلم كم من الوقت قد يبقى على قيد الحياة. حاول ألوشا التركيز في صلاته، لكن تفاجأ بطَرق على الباب، ورسالة قادمة إليه.




أخي الحبيب ألوشا،

أنت الأفضل من بين إخوتي، ولهذا ألتمس منك طلبًا لن يكون هينًا، أريدك أن تخبر كاترينا بانتهاء خطبتنا؛ لأنني أحب واحدة أخرى، أخبرها بأن تنساني، وأرجو أن تُبلغها اعتذاري بشأن ما ائتمنتني عليه من مالها.

ديميتري

حاول ألوشا ألا يظن السوء في أخيه، فهو يحاول دائمًا رؤية جانب الخيِّر في الناس، لكنه شعر بالغضب من ديميتري رغمًا عنه. فإن كاترينا كانت إنسانة صالحة، ولا تستحق مثل هذه المعاملة.

ولكن فعل ألوشا ما طلبه منه أخوه، وأوصل الأخبار إلى كاترينا وحاول مواساتها وهي تبكي بين ذراعيه.

وبعد فترة بدا أن كاترينا قد استجمعت أفكارها، وشكرت ألوشا على قدومه، وقالت: "سوف أستعيده يا ألوشا، فقط انتظر وسوف ترى!".

الفصل الخامس

جلس إيفان أمام نار المدفأة في منزل والده، فقد ذهب لزيارته، ورغم أن الوقت قد قارب على موعد الغداء، فإن والده كان لا يزال في فراشه.

قال جريجـــــوري بنبرة اعتذار: "لقـــد سهر في أمسية طويلة بالأمس".



أومأ إيفان في تفهم، فهو لـم يكن بحاجة إلى أي توضيـــــح إضافي، فعندما قال جريجوري إن والده سهر في أمسية طويلة، كان يعني أنه أقام حفلًا ساهرًا كبيرًا.

قال إيفان: "سوف أنتظره".

وبينما كان ينتظره، وصل ألوشا.

وجلس إلى جوار إيفان أمام نار المدفأة، فقال إيفـــان: "يبدو عليك الإرهاق يا أخي".

أجابه ألوشا: "أنا متعب، لقد طلب مني ديميتري أن أنهي خطبته بكاترينا بالأمس، وكانت حزينة جدًّا، ومن وقتها والأمر لا يفارق ذهني".

نظر إيفـــان في دهشة وسأله: "لكن لماذا؟ إن كاترينـــا جميلة وثرية، ماذا قد يريده غير ذلك؟".



هز ألوشا كتفيه في استهجان قائلًا: "سوف أذهب لرؤيتها ثانية في عصر هذا اليوم".

أسرع إيفان يقول: "دعني أذهب، فأنا أود أن أطمئن عليها، ويمكنك أن تقضي هذا الوقت مع رجل الدين زوسيما".

أومأ ألوشا بالإيجاب، وقال بجدية: "هذا أفضل، فإنه مريض للغاية ولا أعلم إلى متى سيظل على قيد الحياة".

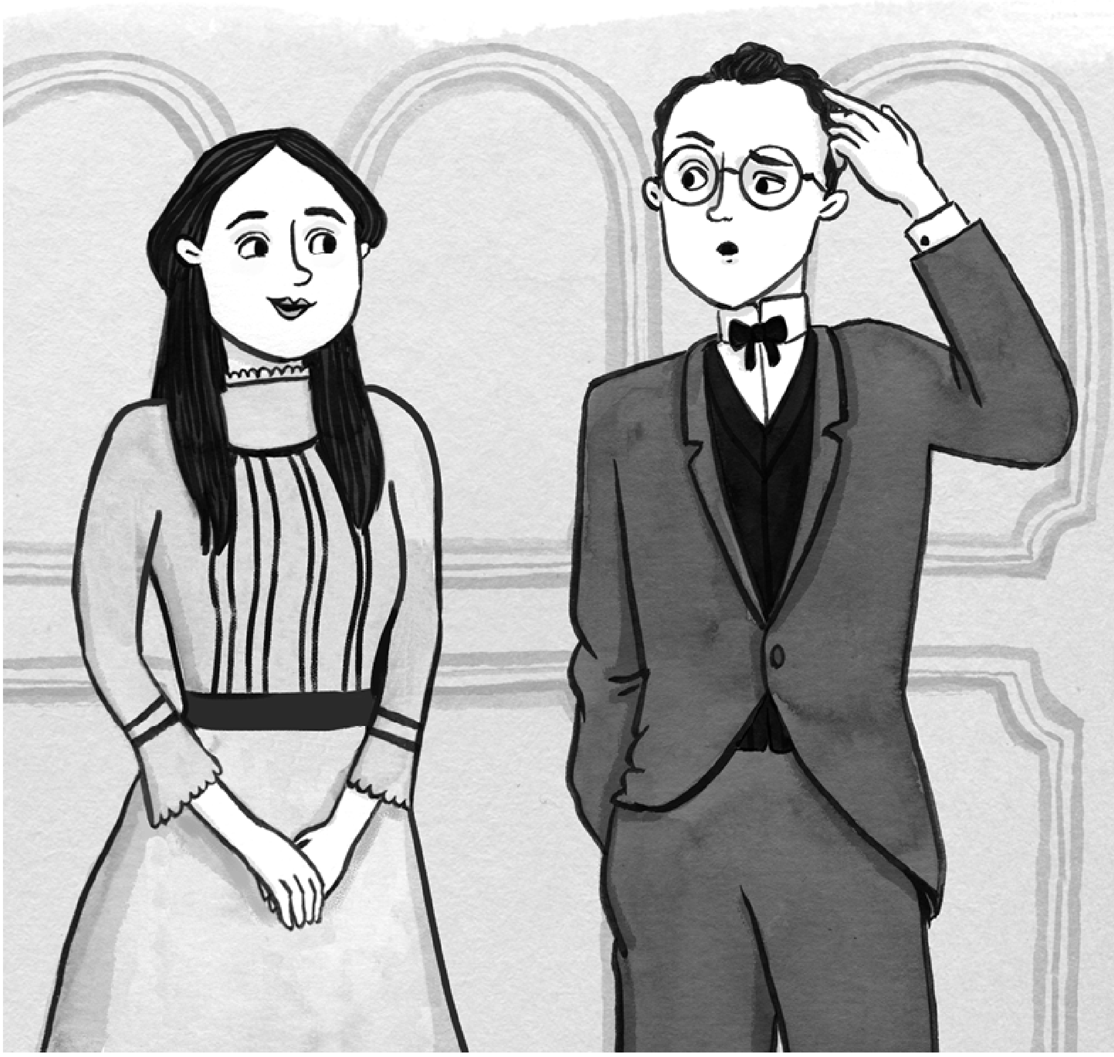
أخذ إيفان نفسًا عميقًا، فمنذ اللحظة التي قدَّم فيها ديميتري كاترينا إلى أسرته، أحبها إيفان، ورأى صدقها ورقتها، ورأى أيضًا أن ديميتري يشبه والده في العديد من النواحي، وأنه في يوم من الأيام قد يؤذي كاترينا، وأقسم إنه إذا حدث هذا، فسوف يعتني بكاترينا.

والآن حدث ما كان يتوقعه.

بينما كان إيفان يسير إلى منزل خالة كاترينا الذي يقع على مسافة غير بعيدة، قام بتسوية شعره وأخذ يفكر فيما يقوله لكي يهوِّن عليها، وربما بمرور الوقت، تنسى ديميتري، وينسجمان معًا.

***

قالت كاترينا وهي ترحب به في غرفة الجلوس: "هذا لطف كبير منك يا إيفان أن تأتي إلى هنا لتطمئن عليَّ". شعر إيفان بالحيرة، فهي تبدو سعيدة، وليست مكسورة الفؤاد.



فقال: ''أنا سعيد لأنني أراك بخير، فبعد ما كان بالأمس اعتقدت أنني سأراكِ حزينة''.

ضحكــت كاترينــــا وقالت: ''بالأمس كنت حزينة، لكنني اليوم عدت سعيدة ثانية! فأنا أعلم أن حبيبي سوف يعود ثانية إليَّ''.

سألها إيفـــان في تعجب: ''سوف يعود؟''. أومأت كاترينا بالإيجاب، وهي تسير نحو نهاية الغرفة حيث يقف شخص في الظلام، وقادت الشخص الواقف نحو إيفان، وكانت جروشينكا!

قالت كاترينا وهي تضع يدها على ذراع جروشينكا: ''هذه الليدي الرائعة جاءت لرؤيتي أيضًا في صباح هذا اليوم. أنت تعلم من هي جروشينكا بالطبع، أليس كذلك؟ هذا هو إيفان شقيق ديميتري''.

قالت جروشينكا: "أوه نعم، أعينكما متشابهة، رغم أن قامتك أقصر من قامة ديميتري".

شعر إيفان بحيرة أشد من أي وقت مضى، فهو كثيرًا ما سمع ديميتري يتحدث عن جروشينكا، ولم يدر كيف تسعد كاترينا برؤيتها.

أجاب إيفان في تردد: "إنها المرأة التي يحبها ديميتري".

صفقت كاترينا بيديها قائلة: "نعم بالضبط! وجروشينكا تقول إنها لا تبادله هذا الحب، فهي أيضًا مثلي لديها حب واحد حقيقي في حياتها ولن تغير رأيها، وهو ضابط في الجيش البولندي تنتظر أن يعود إليها. هؤلاء الرجال سخفاء يحتاجون إلى من يخبرهم بما هو الأفضل لهم. أليس كذلك يا جروشينكا؟".

حدق إيفان في وجه جروشينكا، كانت جميلة، وعرف لماذا وقع ديميتري في حبها بهذه السهولة، لكنه أيضًا رأى في عينيها قسوة ومكرًا.

واصلت كاترينا كلامها: "لقد توصلنا إلى اتفاق بيننا، سوف تتخلى جروشينكا عن ديميتري وتعيده إليَّ".

قالت جروشينكا وهي تستدير لتتجه ناحية الباب: "أشكركِ على هذا الصباح اللطيف"، ثم توقفت وارتسمت ابتسامة خبيثة اتسعت على شفتيها وهي تقول: "لكنني غيرتُ رأيي".



وتحول وجه كاترينا من الفرحة إلى الخوف وهي تقول: "لست أفهم".

قالت جروشينكا وهي تعبث بطرف كمها: "أوه، حسنًا سوف ترين. في وقت سابق كنت لا أرغب في ديميتري، لكن الآن بعدما سمعت كلامك عنه طوال الصباح، أعتقد أنني أريده، وربما أفقد رغبتي فيه ثانية بعد ساعات قليلة. سوف أرى كيف يكون شعوري".

احمر وجه كاترينا غضبًا وهي تقول: "لكنكِ وافقتِ!".

هزت جروشينكا كتفيها في لا مبالاة وقالت: "تسعدني رؤيتك يا إيفان".

لم يجب إيفان، وأمسك بذراع كاترينا وقد بدأت تبكي، وتابعا جروشينكا معًا وهي تغادر المنزل.

الفصل السادس

جلس ألوشا إلى جوار رجل الدين زوسيما، وكانت الغرفة ممتلئة بالشموع ورجال الدين الآخرين الذين يتمتمون بالدعاء من أجل زوسيما.



نادى زوسيما بصوت مبحوح: "يا ألوشا". أمسك ألوشا بيد رجـــــل الدين بارزة العظام، ومال نحوه لكي يسمع ما يقــوله: "عليك أن تساعد أسرتك، عندما جثوت على ركبتي أمام أخيك، رأيت كربًا عظيمًا جاثمًا في حياتكم، اتركني الآن، فلا يوجد ما يمكنك أن تفعله من أجلي، لكنك تستطيع أن تساعد أسرتك قبل فوات الأوان".

وقف ألوشا وأعاد يد زوسيما برقة إلى فراشه، وتفاجأ من كلمات رجل الدين وشعر بالخوف منها، ودعا له مرة أخرى، ومسح الدموع عن عينيه، ثم خرج إلى الشارع

لكي يبحث عن إخوته.

***

حمل سمردياكوف صينية فضية عليها إبريق شاي وثلاثة فناجين خزفية. في هذه الأمسية كان فيودور يجلس في هدوء، نادرًا ما يركن إليه، أمام نار المدفأة، ووصل إيفان وألوشا وانضما إليه.

وبينما كان ألوشا يجلس إلى جوار نار المدفأة، قال فيودور: "يا لحظي التعس فـــــــــــي أولادي البائســين: المتعلم المتيــم والمتدين المتشدد... وهوا!".



وأشار إلى سمردياكوف الذي كان يصب الشاي في انصياع: "الأحمق الذي أدفع له المال لكي يخدمني".

وضع سمردياكوف إبريق الشاي على الصينية وجلس في ركن هادئ. ومن منطلق شعور إيفان بالأسى على حال أخيه، كان قد أعطاه بعض كتب القانون ليقرأها، وشعر سمردياكوف بالحماس عندما اكتشف أن أحد إخوته محامٍ، وشعر إيفـــان بأنه يجب عليـــــه أن يشجع اهتماماته.



قال فيودور: "أما ديميتري فهو بلا فائدة، لا أراه إلا عندما يأتي طالبًا المال!".

تبادل إيفان وألوشا النظرات. في الحقيقة، لم يسمع أي منهما عن ديميتري منذ الخطاب الذي أرسله إلى ألوشا في الليلة التي أنهى فيها خطبته، لكن هذا لم يكن غريبًا على ديميتري، فغالبًا ما يختفي لأيام دون أن يخبر أحدًا.

وبسبب رغبة ألوشا في تنفيذ ما طلبه منه زوسيما بشأن جمع شمل أسرته، سأل: "هل تعتقد يا أبي أن علاقتك مع ديميتري قد تتحسن ولو قليلًا؟".

رد فيودور ساخرًا: "لماذا قد تتحسن؟ إن هذا الولد غاضب طوال الوقت، ومهووس بالمال".

أجاب إيفان في هدوء: "إذن ربما يجب عليك أن تعطيه ماله من ميراث والدته، فنحن نعلم أن المال معك، وهو ماله من الناحية القانونية".

احمر وجه فيودور، وكان على وشك أن يرد عليه عندما انفتح باب غرفة الجلوس في منزل فيودور بقوة. دخل ديميتـــــري ووراءه جريجوري، وقال الأخير: "أنا آسف يا سيدي، فقد اندفع إلى الداخل!".

أخذ ديميتري يبحث بعينيه في الغرفة في عصبية، ثم استقرت عيناه على والده وهو يصيح قائلًا: "مـــــا الذي قلته لجروشينكا؟". انتصب سمردياكوف في جلسته وهو يراقب أخاه الأكبر يسير في الغرفة كحيوان بري، فأضاف ديميتري: "إنها لم تتحدث معي منذ أيام، ولا تراني عندما أذهب إلى الحانة، أعرف أن هذا من فعلك!".

وقف ديميتري أمام والده، لكن فيودور لم يكن خائفًا منه، بل كلما زاد فيودور هدوءاً، اشتد غضب ديميتري.

قال فيودور مبتسمًا وهو يشيح بيده أمـــــام ابنـــــه الأكبـــــر: "أوه، عـــــزيزتي جروشينكا! إنها فتاة طيبة. تحضر لي زجاجة من مشروبي المفضل من وقت إلى آخر ونتحدث معًا. لا أعرف أبدًا ما الذي تراه فيك".



أمسك إيفان وألوشا بذراع أخيهما بلطف لكي يحجزا بينه وبين والده.

قال ديميتري: "مثلما كنت تهمس في أذنها بما يثير شكوكها! سوف تحصل على جزائك في يوم من الأيام، وحينها سوف نسعد أنا وألوشا وإيفان بل وحتى سمردياكوف".

غادر ديميتري المنزل والغضب واضح في عينيه وضحكات والده القاسية ترن في أذنيه.

الفصل السابع

بعدما غادر ديميتري، توجه فيودور إلى غرفة نومه. وبسبب شعور ألوشا بالقلق على أخيه، قرر أن يبحث عنه وغـــادر المنزل بـــدوره، ثـــم شرع سمردياكوف في الترتيب وإعادة أكواب الشاي إلى المطبخ.

قال إيفان وهو يحمل الصينية الثقيلة تخفيفًا عن أخيه: "دعني أساعدك".

أجاب في هدوء: "شكرًا لك، وأشكرك على الكتب والأوراق التي أعطيتني إياها، إن موضوعـــــات القانون شائقة جدًّا".



ابتسم إيفان، كان إخوته مختلفين تمام الاختـلـــاف، وشعر بأنه من الرائع أن يجد قاسمًا مشتركًا بينه وبين أحـــــــد إخوته.

سأله إيفان: "ما الذي أعجبتك قراءته أكثر؟".

أجـــــاب سمردياكوف: "استمتــعت بقراءة الأوراق التي تتناول الجرائم الحسنة والجرائم السيئة، حيث أتفق على وجود جرائم حسنة، فمثلاً لا بأس من اقتحام مبنى إذا كان يحترق لكي تنقذ طفلًا، أو لا بأس بقتال شخص ما إذا كان يحاول سرقتك".



تبع إيفان سمردياكوف إلى المطبخ.

قـــال إيفان: "إنه موضوع معقد، يسعدني أن أتناقش معك في بعض الأفكار التي طرحها زملائي في هذا الموضوع".

وافق سمردياكوف في سعادة، وجلس الأخوان معًا على طاولة المطبخ.

***

لم يكن ديميتري في شقته، وهكذا ذهب ألوشا في طريقه إلى حانة جروشينكا، وطرق بلطف الباب الذي يفضي إلى الغرف التي تقع أعلى الحانة حيث تسكن جروشينكا.



عندما انفتح الباب، تراجع ألوشا خطوة إلى الوراء، ورأى أمامه رجلًا طويلًا ذا شعر قصير ومنمق، وكان يرتدي زي الجيش البولندي.

سأله الرجل في فتور: "ماذا تريد؟".

وفجأة اندفعت جروشينكا إلى جواره وهي تقول في سعادة: "أنت شقيق ديميتري، أليس كذلك؟ تفضل بالدخول".

نقل ألوشا بصره بين الرجل وبينها، وقد تأبطت ذراعه وأراحت رأسها على كتفه في حب.

ثم قال في تهذيب: "لا، شكرًا لكِ، كان أخي يبحث عنكِ، ربما من الأفضل أن أخبره بأنكِ مشغولة في الوقت الحالي؟".

واتضح لألوشا أن هذا الرجـــل هو السبب في ابتعادها عن ديميتري، وإذا كانـــت جروشينكا لم تعد ترغب في بقائها مع أخيه، فقد أراد ألوشا أن يكون هو من يبلغه بهذا الخبر. فهو يثق بأنـــه الوحيـــد القادر على الســـيطرة على أعصـــاب ديميتري.



ابتسمت جروشينكا في وجه الضابط، وقالت: "أخبره بأنني سعيدة، أخبره بأن الشخص الوحيد الذي أحببته حقًا قد عاد إليَّ، أرجو ألا يسئ الظن بي، فقد أحببت أخاك ربما لساعة أو نحو ذلك، لكنك تعلم أحوال القلوب وكيف...".

ابتسم ألوشا في تهذيب وغادرهما، ولم يعرف متى أو كيف ينقل لديميتري هذا الخبر. هل يكون هذا هو الكرب العظيم الذي حذره منه زوسيما؟ إذا كان كذلك، فمن واجب ألوشا أن يعتني بأخيه، وسوف يخبره بالموضوع على الفور.

الفصل الثامن

استيقظ إيفان في صباح اليوم التالي، وهو شاعر برضا لم يشعر به منذ وقت طويل. فإن حديثه مع سمردياكوف جعله يشعر كأنه أخ أكبر بحق، فلم يسبق أن استطاع تقديم المســـاعدة أو التوجيه لألوشـــا، حيث لــم يفهم أبدًا سبب إصراره على دراســـة الدين. بينما كان سمردياكوف منتبهًا إلى كل كلمة يقولها إيفان، وبرغم أن سمردياكوف لم يكن ماهرًا بالدرجة الكافية ولا يملك المال الكافي لكي يتدرب ليصبح محاميًا، لكن ربما، بمساعدة إيفان، يصبح مساعدًا أو كاتبًا في أحد مكاتب المحاماة في يوم من الأيام.

بينما كان إيفان يفكر في طرق لمساعدة أخيه الأصغر، وجد أن رجليه قد ساقتاه إلى منزل خالة كاترينا، فمنذ عصر اليوم الذي التقى فيه بجروشينكا، كان يشعر بالقلق على كاترينا؛ فقد رأى حزنها، وكان يأمل أن يكون هو من يداوي جرح قلبها. صحيح أن إيفان لم يكن طويلًا أو وسيمًا مثل ديميتري، لكنه صادق ولطيف. إذا رأت كاترينا هذا الجانب فيه، فربما تفكر في أن تصبح زوجته.

تبددت أحلام اليقظة لدى إيفان حين رأى حقائب الأمتعـــــة موضوعة فوق العربة التي تجرها الخيول، وكانت خالة كاترينا تعطي التعليمات لسائق العربة، وحينها رأى كاترينا.



قال وهو يحني رأسه تحية لها: "يبدو أنك مشغولة".

أجابت كاترينا: "مرحبًا يا إيفان، سوف أعود إلى منزلي بمدينة سانت بطرسبرج".

هوى قلب إيفان في جوفه وسألها: "متى؟".

أجابت: "في الغد، سوف تسبقني حقائبي إلى هناك".

فسألها إيفان في محاولة لاغتنام الفرصة المتاحة: "إذن هل تقبلين بتناول العشاء معي هذه الليلة؟ فأنا أكره أن تكون آخر ذكرياتك عن هذه المدينة هي ذكريات تعيسة".

وافقت كاترينا وهي ترسم ابتسامة باهتة على وجهها الشاحب.

***

كان ألوشا يجلس في غرفة المعيشة في شقة أخيه الصغيرة، وكانت زجاجات الشراب الخاوية ملقاة على أرضها، وقال: "للأسف يا أخي، يبدو أن جروشينكا ترغب بحق في أن تبقى مع هذا الرجل".



فرك ديميتري لحيته ثم حدق من النافذة وقال بصوت هامس: "الأمر يتعلق بالمال".

لم يفهم ألوشا ما قاله أخوه.

- "جروشينكا تعتقد أنني لا أستطيع إعالتها، لكن إذا كان لديَّ المال الذي ورثته من والدتي، المال الذي يستأثر به أبونا، يمكنني أن أبرهن لها أنني قادر على رعايتها".

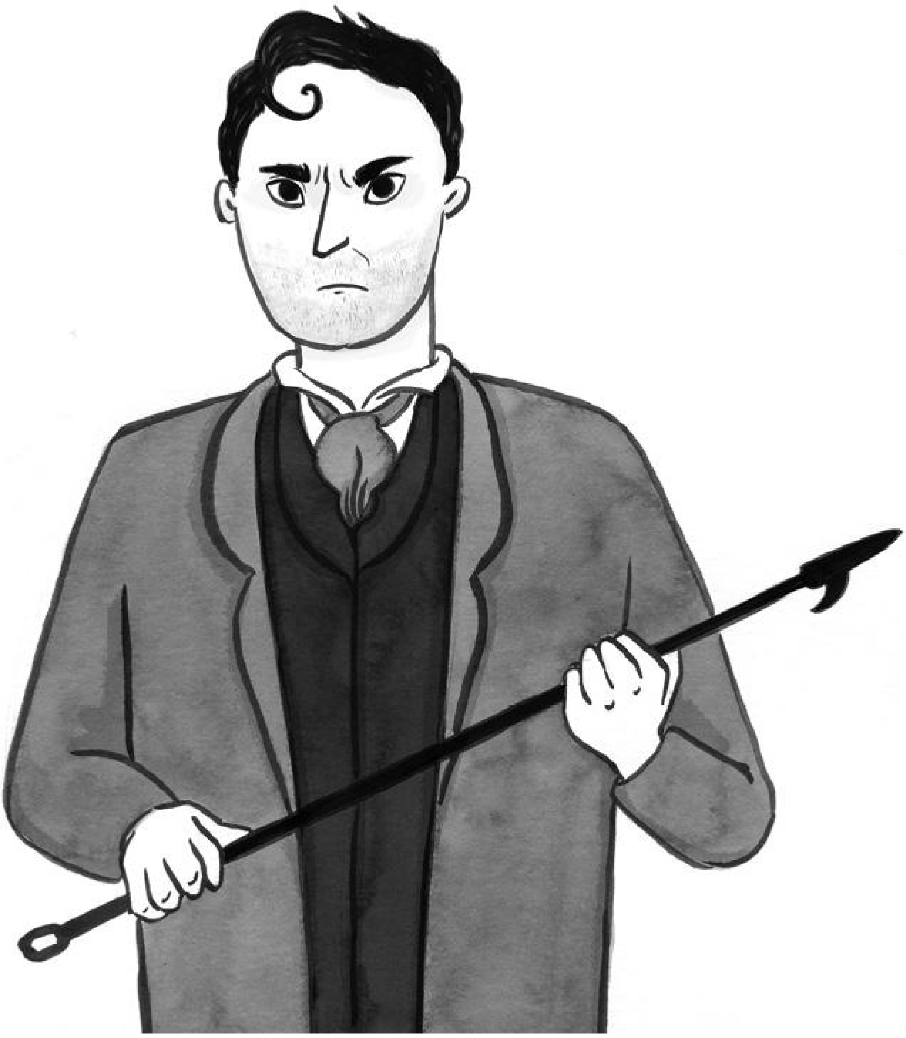
هز ألوشا رأسه قائلًا: "لقد طلبت هذا المال من الوالد من قبل، ولم يعطك إياه".

صاح ديميتري: "بل يجب أن يعطيني المال! لا يمكنني أن أبدأ حياتي مع جروشينكا من دون مال، كما يجب أن أرد المال الذي أخذته من كاترينا. إذا فعلت كل هذا، إذا صححت كل الأمور، فسوف تنسى جروشينكا هذا الضابط البولندي".

وقف ديميتري وأخذ قضيب إحماء النار من مكانه إلى جوار المدفأة المنطفئة، وتحقق من ثقله في يده، واسود وجهه وامتلأ بالوعيد.

سأله ألوشا في قلق: "ماذا تنوي أن تفعل بهذا؟".

- "لن أمسه بسوء، لكن أبانا جبان، فإذا لم يعطني المال، فسوف أخيفه حتى يعطيني إياه".



الفصل التاسع

كان منزل فيودور كارامازوف مظلمًا، لا ينيره بالداخل سوى شمعات قليلة يرتجف ضوؤها في الهواء، وكانت غرفة المعيشة خاوية. دار ديميتري حول سور الحديقة ليرى دلالة تشير إلى وجود والده بالمنزل. وسرعان ما رأى عبر النافذة ظلاً يسير باضطراب في أنحاء غرفة نومه.

نقـــل ديميتري بصـــره بين القضيب الحديدي في يده وبين ظل والده. وفجـــأة شعر بعدم جـــدوى خطته، فقد حاول مرات عديدة أن يحصل على الأموال التي تركتها له والدته، فلماذا قد يعطيه والده المال في هذه المرة، في حين رفض مرات عديدة من قبل؟



تنهد ديميتري، يجب أن يذهب إلى جروشينكا ويحاول الفوز بها ثانية دون المال.

في تلك اللحظة، شعر ديميتري بيد تقبض على كتفه في العتمة، وبغريزة الجندي دار ديميتري حول نفسه وضرب هذا الشخص بالقضيب الحديدي.

تراجع ديميتري في ذعر حين رأى أن جريجوري هو من يرقد على الأرض. لا بد أن الخادم العجوز قد رآه في الحديقة واعتقد أنه شخص دخيل.

شعر ديميتري بالارتياع مما فعله، فأسقط القضيب على الأرض وركض هاربًا.

***

ظل ديميتري يركض حتى وصل إلى حانة جروشينكا، والتي كانت ممتلئة بزبائنها المعتادين، ونقل بصره ما بين الوجوه التي بدت جميعها سعيدة وخالية من الهموم.

سأل ديميتري نادلة كانت تمسح الطاولات: "أين جروشينكا؟".

أجابت النادلة في فتور: "في شقتها بالطابق العلوي، ولا ترغب في أن يزعجها أحد".

هز ديميتري رأسه وتجاهل النادلة، وصعد درجات السلم وطرق بابها بقبضته.

عندما فتحت جروشينكا الباب، لاحظ ديميتري أنها ترتدي فستانًا أحمر زاهيًا وقد غطته بشال رمادي كئيب، ولاحظ أيضًا أنها لا تضع أي مساحيق تجميل، وقد جمعت خصلات شعرها الأشقر ولفَّته على شكل كعكة عادية.

قالت في تهذيب وهي تسمح له بالدخول: "ديميتري! تفضل وتعرَّف على الضابط موسيالوفيتش". وسارت جروشينكا في هدوء حتى الكرسي الموضوع في زاوية غرفة معيشتها.



حدق ديميتري في الرجل، أخيرًا أتيح له رؤية الشخص الذي سحر جروشينكا. كان معطفه العسكري ملقى فوق الكرسي وكان يلعب بالأوراق مع جندي آخر.

قال موسيالوفيتش في تهكم وهو يدفع الكرسي بقدمه لكي يجلس عليه ديميتري: "لماذا لا تنضم إلينا في لعبة الأوراق؟".

كان هذا آخر ما قد يرغب ديميتري في فعله، نظر إلى جروشينكا، وبدا كأن عينيها قد انطفأتا.

قال موسيالوفيتش: "لا تضيع وقتك عليها يا صديقي، إنها بلا فائدة، لماذا في رأيك بقيت كل هذه المدة الطويلة بعيدًا عنها؟ عندما وصلت إلى هنا في هذه الليلة، وجدت أنها صففت شعرها بهذه التسريحة العادية، وترتدي فستاناً يجعلها تبدو رخيصة".



أطرقت جروشينكا برأسها، وقد امتلأت عيناها بالدموع.

حـــاول ديميتري جاهدًا أن يتمالك أعصابه، وسأله وهو يصر على أسنانه: "لماذا عدت ثانية إذن؟".

أجاب موسيالوفيتش وقد اتسعت ابتسامته: "يبدو أن عزيزتي جروشينكا قد لاقت نجاحًا، إن هذه الحانة تدر ذهبًا. يمكنني أن أتحملها إذا شاركتني هذه الثروة".

لم يصدق ديميتري ما كان يسمعه، هل فضلت جروشينكا عليه مثل هذا الرجل الوقح البغيض؟ لكنه عرف تعاسة جروشينكا التي أخفت وجهها بين يديها وأخذت تبكي.

قال ديميتري وهو يسير نحو موسيالوفيتش: "إن شئون القلب عجيبة. أحيانًا ما نعتقد أننا نحب شخصًا ما، بينما ما نحبه في الحقيقة هو مجرد فكرتنا عنه".

نظرت جروشينكا إلى ديميتري، ووضع موسيالوفيتش أوراق اللعب من يده. وسأله موسيالوفيتش: "ما الهراء الذي تقوله؟".

أجاب ديميتري: "أعتقد أن جروشينكا قد ارتكبت خطأ، فكانت تعتقد أنك رجل أحلامها، لكن الحقيقة غير ذلك".

نهض موسيالوفيتش وأوقع كرسيه أرضًا وقال: "لن أستمع إلى مثل هذا الكلام، اطلبي يا جروشينكا من هذا السيد الانصراف من شقتك، وإلا سوف أغادر أنا".



قفزت جروشينكا من الزاوية التي كانت تجلس فيها وركضت إلى جوار ديميتري وهي تصيح: "رائع! يمكنك أن تغادر إذن".

أخيرًا، استفاقت جروشينكا، صحيح أنها أحبت موسيالوفيتش في السابق، لكنها ترى الآن أنه أصبح رجلا قاسيًا، والأسوأ من ذلك، القسوة التي زرعها فيها. لكن مع وجود ديميتري إلى جانبها، عرفت جروشينكا أنها أصبحت أخيرًا مع الرجل الذي يفترض أن تكون معه.

عندما غادر موسيالوفيتش وصديقه الحانة، حمل ديميتري جروشينكا وأخذ يدور بها في أنحاء الغرفة وهي بين ذراعيه.

الفصل العاشر

لم تستمر فرحة ديميتري وجروشينكا طويلًا، فبعدما أخليا المكان من أي أثر لموسيالوفيتش، ارتفع صوت طرق على الباب، ودخل ضابطا شرطة غرفة المعيشة.



سأل الضابط الأكبر: "هل أنت ديميتري كارامازوف؟".

تهدلت كتفا ديميتري، إذ كان يعلم السبب في قدومهما، لا بد أن جريجوري المسكين قد مات من أثر الضربة التي تلقاها في وقت سابق من هذه الليلة.

أجاب ديميتري في خوف: "نعم أيها الضابط، هذا أنا"، لكنه بشكل ما كان يشعـــــر بالهــدوء لوجــود جروشينكا إلى جــواره، فقد عــرف أن عليه أن يواجه عاقبة فعله.



قال الضابط الأصغر وهو يخرج أصفاده: "أنت معتقل بتهمة القتل".

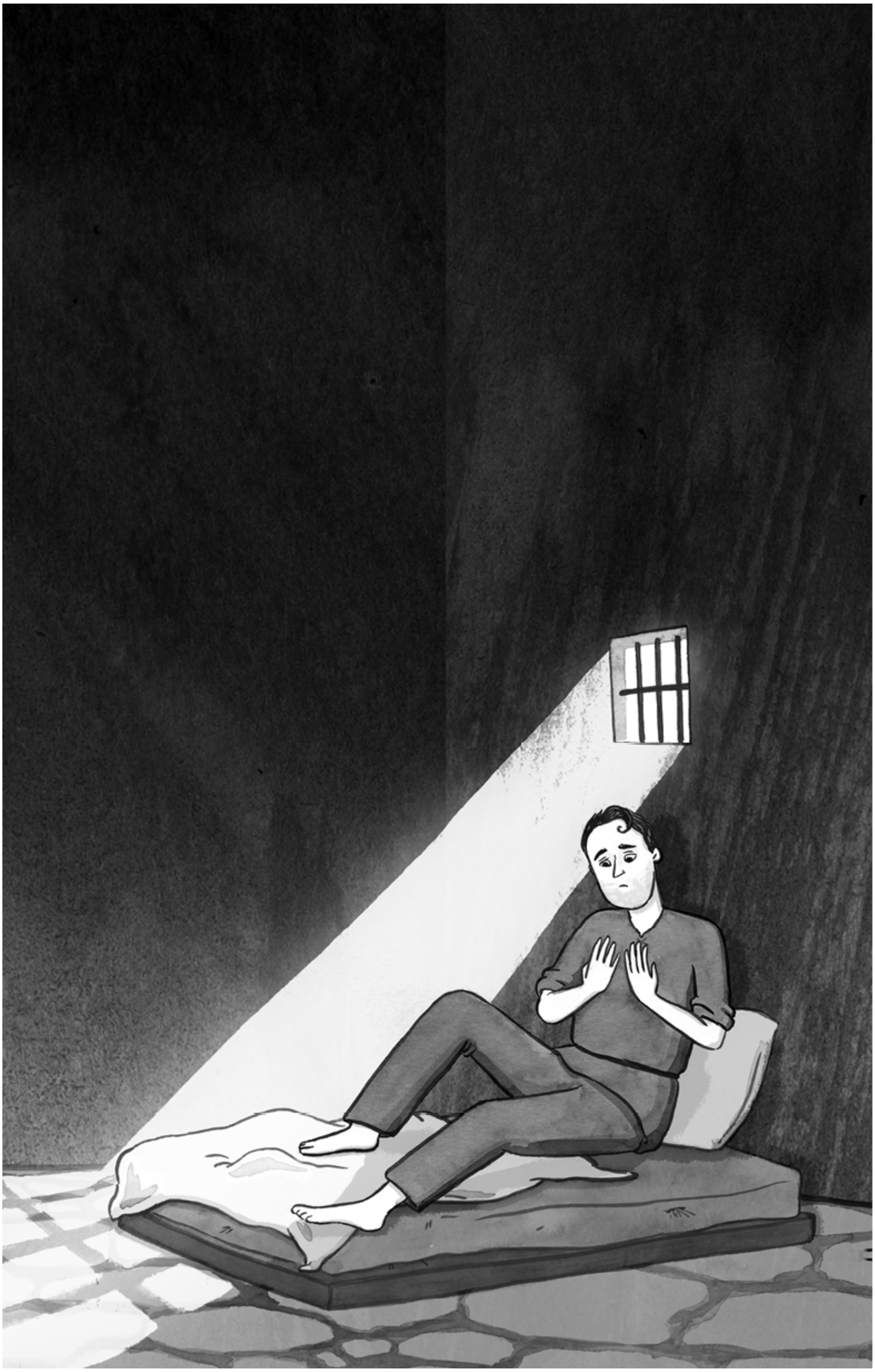
قال ديميتري وهو يمد معصميه لكي يضع الضابط الأصفاد فيهما: "أنا آسف، لم أقصد أن ألحق الأذى بجريجوري المسن ...".

رد الضابط الأكبـــر في حيـــــرة: "جريجوري؟ جريجوري بخير، باستثناء النتوء على رأسه، لقد كان هو من أخبرنا بمقتل والدك".

وفي صدمة، تراجع ديميتري خطوة إلى الوراء قائلًا: "والدي؟ هل تعني ... والدي مات؟ لكنني لم أقتل والدي!".

كان ديميتري بمفرده في زنزانة السجن، التي يتسلل من خلال نافذتها الصغيرة العالية ذات القضبان الحديدية أشعة ضوء خافتة تسقط على الأرضية الحجرية

للزنزانة. كان يجلس على فراش من القش القاسي، محدقًا في يديه. في أوقات كثيرة من حياته أراد أن يموت والده، لكنه ما كان ليقتله أبدًا.



تحدد موعد المحاكمة، وعلم ديميتري أن الكثير من الشهود سيشهدون بكراهيته لوالده، ولن يلتفت أحد إلى إمكانية براءته بعد سماع المحكمة لكلام الشهود.

انفتح قفل زنزانة ديميتري بصوت مرتفع وانفتح الباب مصدرًا صريرًا.

قال ديميتري هو يقف ليحتضن أخويه: "إيفان، ألوشا، أنا لم أقتل والدنا، يجب أن تصدقاني".

جذب إيفان مقعدًا خشبيًا أمام فراش أخيه وقال: "أعلم، نحن نعلم هذا". ابتسم ألوشا، الذي كان يقف إلى جوار الباب لأخيه مؤكدًا على كلام إيفان.

سأله إيفان: "هل هناك أي شيء يمكننا أن نفعله لمساعدتك؟ هل هناك أي شخص يمكننا أن نتحدث معه؟".

أجاب ديميتري في مرارة ساخرة: "فقط إذا كنت تعرف من هو القاتل. لكن ماذا عن سمردياكوف؟ لا بد أنه كان بالمنزل عندما حدث ما حدث".

هز ألوشا رأسه، وقال: "كان مريضًا في ذلك اليوم، وكان نائمًا في غرفة نومه عندما وقعت الجريمة".

تناقش الإخوة فيمن قد يحمل مثل هذه الكراهية الشديدة التي تدفعه لقتل أبيهم، فقد كان هناك الكثير من أهالي مدينة سكوتوبريج ممن يبغضون فيودور كارامازوف، وهكذا سرعان ما امتدت قائمة الاحتمالات.



قال ألوشـا: "ســوف أخبر المحقق المسئول عن القضيــة بهذه الأسماء، وربما يتوصل إلى ما يفيدنا".

ابتسم ديميتري لأخيه الصغير، فلم يكن لديه أمل في النجاة، لكنه أحب تفاؤل أخيه ألوشا.

وقـال إيفان: "سوف أتحـــدث مع سمردياكوف، فربما يخبرني بشيء كان يخشى أن يخبر به الشرطة".

تعانق الإخوة مرة أخرى، قبل أن يتركا ديميتري بمفرده في زنزانته.

الفصل الحادي عشر

فتح إيفان باب منزل والده ودخله ببطء، وقد بدا المنزل غريبًا وهادئًا، ولم يكن هناك صوت سوى صوت تكاة ساعة جده الخافتة الموجودة في الردهة. وعندما دخل غرفة المعيشة، وجد نار المدفأة منطفئة.

- ‘‘إيفان؟’’.

قفز إيفان عند سماعه لاسمه، وكان المتحدث هو سمردياكوف الذي كان يجلس في كرسيه المعتاد في الزاوية البعيدة من الردهة، وبدا مختلفًا.

- ‘‘هل أنت بخير يا سمردياكوف؟’’.

ابتسم سمردياكوف مجيبًا: ‘‘أنا في منتهى السعادة يا أخي العزيز’’.

قطب إيفان حاجبيه، صحيح أنه لم يكن قريبًا من والده، لكنه لا يتخيل أن يشعر بـ’’السعادة’’ لمقتل والده.

ســــأله إيفان: ‘‘سمعت أنك مريض؟’’.



بـدأ سمـــــــرديـاكوف يضحك، ثم وقف وسار نحو إيفان وقال له: "مريض؟ لا، أنا بخير! وبصحة وعافية! هل تود أن تشرب الشاي؟".

رفض إيفان، ثم أدرك السبب فيما يبدو عليه سمروياكوف من اختلاف، فهو لم يعد يرتدي ملابس الخادم التي اعتاد ارتداءها، بل كان يرتدي أفضل معطف لدى والده.

ســــــأله إيفان: "لماذا ترتدي هذا المعطف، وما سبب سعادتك؟ إن والدنا مات لتوه ... أنا لا أفهمك".

تلاشت ابتسامة سمردياكوف وهو يجيبه: ‘‘كنت أعتقد أنك أجدر شخص على الفهم، إن الرجل الذي كان يقول إنه والدنا قد مات، الرجل الذي أهملنا وتعامل معنا بسوء قد خرج من حياتنا إلى الأبد. وسوف نقتسم ثروته فيما بيننا نحن الأربعة، هذا يوم سعيد. كنت أعتقد أنك ستشعر بالامتنان’’.

بدأ قلب إيفان يخفق أسرع قليلًا وهو يسأل أخاه: ‘‘امتنان؟ على ماذا؟’’.

أجاب سمردياكوف: ‘‘لأنني خلَّصتكم من والدنا! بعد مناقشتنا حــــول الجرائم الحسنة والجرائم السيئة، علمت ما يجب عليّ فعله، وإنَّ قتل أبينا هو جريمة حســــنة. وأنا مدين لك بالشكر لأنك ألهمتني الفكرة، وكان الأمر سهلًا يسيرًا في النهاية، فقد تظاهرت بالمرض وانتظرت حتى أصبح أبونا مترنحًا في غرفته’’.



انحنى سمردياكوف في حركة مسرحية كأنه يحيي الجمهور في نهاية المسرحية.

قال إيفان في غضب: "تعتقد الشرطة أن ديميتري هو القاتل، ويُنتظر الحكم عليه بتهمة القتل!".

هز سمردياكوف كتفيه في لا مبالاة قائلًا: "إن الشبه بينه وبين أبينا كبير جدًّا، وكان سينفق أمواله في الحانات وعلى المرأة التي تسمى جروشينكا. هذا أفضل يا أخي".

هز إيفان رأســـه وهـــو يحدق في سمردياكوف، هذا الشاب الهادئ الذي كان يقدم لهم الشاي ويسأل إيفان عن دراساته هو قاتل متحجر القلب، بل والأسوأ من هذا ادعاؤه أن إيفان هو من أوحى له بفكرة قتل والدهم!

الفصل الثاني عشر

كانت قاعة المحكمة تعج بالحضور في كل يوم من أيام محاكمة ديميتري، حاول إيفان أن يخبر الشرطة باعتراف سمردياكوف، لكنهم لم يصدقوه، فهو ولد خادم ذو طباع هادئة، أما ديميتري فهو جندي سابق حاد الطباع يحب الحفلات جدًّا ويكره فيودور. وبالمفاضلة بين الاثنين يظهر ديميتري هو المشتبه به الأشد ترجيحًا.

استدعي الشهود واحدًا بعد الآخر، ممـــن شهـــدوا برؤيتهـــــم لديميتري كارامازوف في ليلة القتل، وأن الغضب كان باديًا على وجهه، وكان متوجهًا إلى منزل كارامازوف ومعه قضيب حديدي. وحتى ديميتري نفسه لم يستطع أن ينكر صحة هذا الكلام، وأخذ يجادل مرة بعد أخرى أنه لم يقتل والده، لكنه لم يستطع إثبات كلامه. وكان الأمر الوحيد الذي ساعد ديميتري خلال هذه المحنة هو رؤيته لإخوته ولجروشينكا في قاعة المحكمة. فكانت جروشينكا أول من يذهب من الحضور ويجلس في قاعة المحكمة في كل يوم.

وفي آخـــــر يــــوم للمحاكمة، تفاجأ إيفان وألوشا برؤية كاترينا معهم في قاعــــة المحكمة. فمنذ اليوم الذي غادرت فيه مدينة سكوتوبريج، وكان إيفان وكاترينا يتراسلان، وكان إيفان واثقاً من أن مشاعر كاترينا تجاهه تزداد قوة، لكنها لم تذكر له أنها سوف تحضر المحاكمة.



وسرعان ما اتضح سبب وجودها؛ فقد جاءت كاترينا شاهدة في القضية.

سأل القاضي: "هل يمكنكِ إخبارنا عن علاقتك بديميتري كارامازوف؟".

أجابت كاترينا: "كنا مخطوبين، لكننا انفصلنا".

- "ولماذا حضرتِ اليوم؟".

سحب إيفان نفسًا عميقًا، كان يأمل في أن تقول في المحكمة إن ديميتري ليس بقاتل، ونظر إلى ألوشا الذي ابتسم في وجهه مطمئنًا له.



أخرجت كاترينا خطابًا من جيب فستانها وهي تقول: ‘‘معي دليل، دليل يؤكد أن ديميتري كارامازوف قادر على أن يقتل والده’’.

بدا الانزعاج على وجه ألوشا، وهمس قائلًا: ‘‘ماذا؟! لا يمكن!’’.

أما إيفان فقد منعته صدمته من الكلام.

تنحنحت كاترينا وبدأت تقرأ المكتوب في الرسالة التي كان ديميتري قد كتبها لها أثناء خطبتهما. تناولت الرسالة كلام ديميتري عن ميراثه من والدته، ومدى كراهيته لوالده لاستئثاره بالميراث لنفسه، وأخيرًا قــرأت الكلمـــات التي تدين ديميتري.

قرأت: ‘‘... لا أعتقد أن والدي سوف يعطيني أبدًا نصيبي من المال، ولا سبيل لأن أحصل عليه إلا إذا مات هذا الرجل العجوز. وإذا لم يحدث هذا في وقت قريب، فسوف أقتله بنفسي’’، ثم طوت الخطاب ثانية وأعادته إلى جيبها.

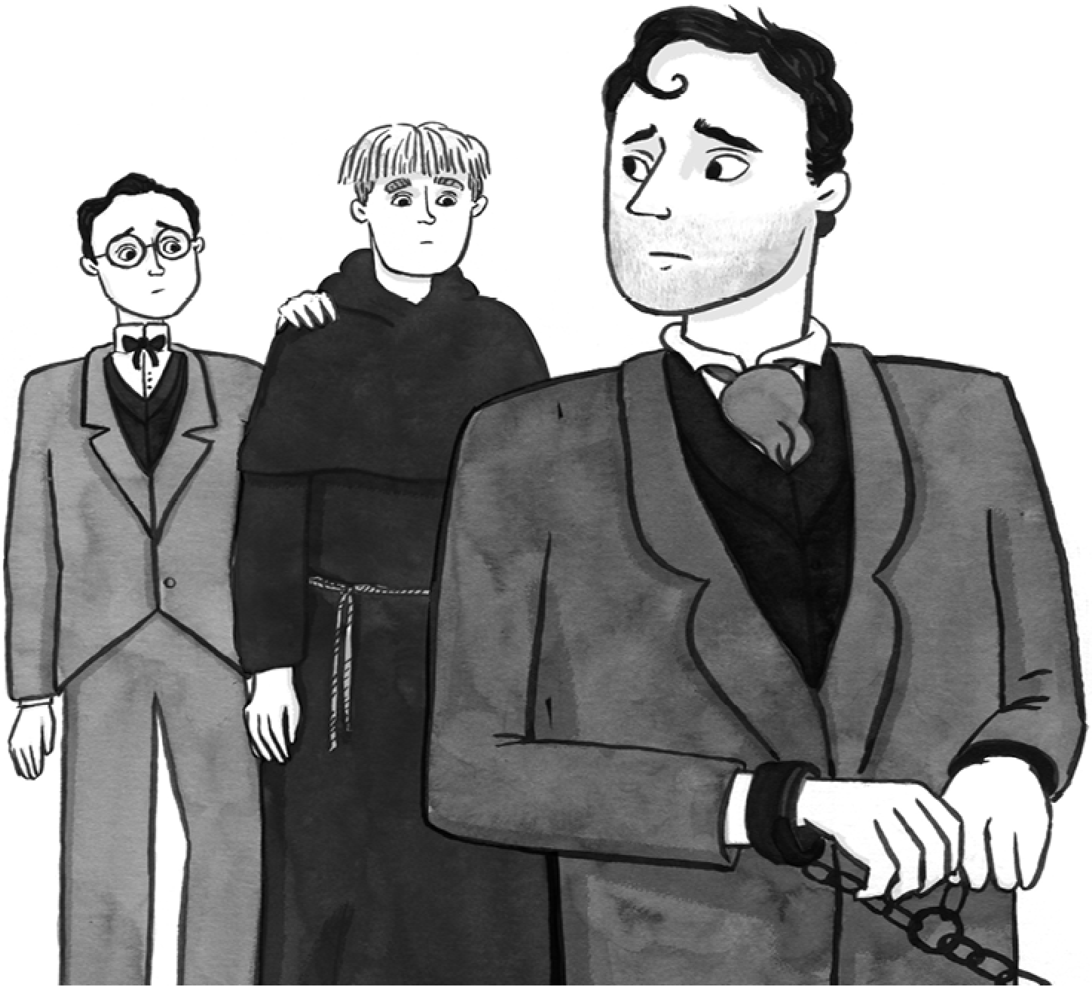
وضع إيفان رأسه بين يديه، وأخذ ألوشا يدعو بالنجاة.

غادر القاضي قاعة المحكمة لكي يفكر في الحكم، ولم يستغرق وقتًا طويلًا.

ساد صمت مطبق بين الحضور في قاعة المحكمة بينما كان القاضي يحدق في وجه ديميتري، ثم أعلن قائلًا: ‘‘ديميتري كارامـــازوف، أنت متهــــم بجريمة قتل والدك فيودور كارامازوف، وأرى أنك مدان بهذه الجريمة! أنت لم تعترف بإثمك، وهذا في رأيي جرم أكبر، سوف تبقى في السجن لبقية حياتك’’.

وقفت جروشينكا وأطلقت صرخة وصاحت قائلة: "لا! كل هذا بسببكِ أنتِ!"، وأشارت إلى كاترينا، ورأى إيفان الدموع في عيني كاترينا.

وبينما كان ديميتري منقاداً إلى زنزانته، ألقى نظرة أخيرة على أحب الناس إليه: وهما أخواه.



خاتمة

بعد المحاكمة، لم يشعر ديميتري بالغضب، فقد أدرك أن تصرفاته لو كانت أفضل مما هي عليه، لما صدق القاضي أنه قادر على ارتكاب جريمة القتل.

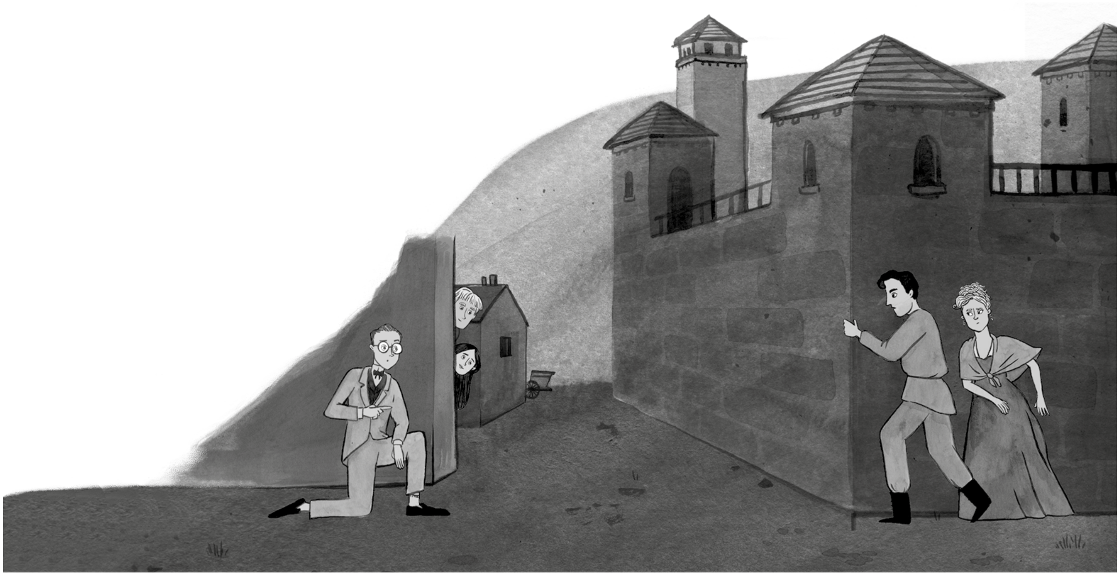
طلب من ألوشا أن يُحضر كاترينا إلى زنزانته حتى يعتذر إليها عن طريقة معاملته لها. أمسك ديميتري يدها وأخبرها بأنه لا يلومها على قدومها إلى المحاكمة.

قبلت كاترينا اعتذار ديميتري، فمنذ اللحظة التي نطق فيه القاضي بكلمة "مُدان" شعرت بالسوء حيال ما فعلته في المحاكمة. ورغـــم أن ديميتري قـــد أرسل هذا الخطاب فإنها كانت تعلم في أعماقها أنه ما كان ليقدم أبدًا على قتل والده. من خلال الخطابات تزايد التقارب بين كاترينا وإيفان، وحاولا معًا أن يريا إذا كان باستطاعتهما إثبات براءة ديميتري. وأقنعا رجال الشرطة بالتحدث مع سمردياكوف، لكن عندما وصلوا إلى منزل كارامازوف، كان سمردياكوف قد اختفى، ولم يعد بإمكانهم فعل أي شيء قانوني لإخراج ديميتري من السجن.



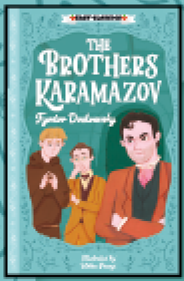
وظل ألوشا يدعو لأخيه في كل يوم، وفهم أخيرًا ما كان رجل الدين زوسيما قد رآه في مستقبل ديميتري، ولما كان ألوشا قد تعهد لرجل الدين بأن يساعد ديميتري، وافق على أن يساعد إيفان وكاترينا في الوصول إلى خطة أخرى لتحرير ديميتري.

لم تسامح جروشينكا كاترينا أبدًا على ما فعلته في محاكمة ديميتري، ومع ذلك كانت تعلم أنهم جميعًا بحاجة إلى العمل معًا لإخراج ديميتري من السجن. وهكذا اتفقوا على الخطة، وفي جنح الليل، ساعدوا ديميتري على الفرار من السجن. وفي اليوم السابق للهروب، باعت جروشينكا حانتها، وأصبح لدى كل من ديميتري وجروشينكا ما يكفي من المال لكي يغادرا روسيا سريعًا، ورغم أنهما مطـــاردان، فإنهمـــا أخيرًا قد وجدا الطمأنينة معًا.



وبعدما هدأ خبر الهروب، تزوج إيفان من كاترينا، وسرعان ما كوَّنا أسرة صغيرة تتطلب رعايتهما، ونشأت ابنتاهما الصغيرتان في جو أسري مليء بالحب والمرح، وهي الأسرة التي لطالما رغب إيفان في أن يكون جزءًا منها.

الغلاف الخلفي



ديميتري هو شخص غضوب ومتهور، **وإيفان** ذكي وعقلاني، **وألوشا** محب ومتسامح. وهناك **سمردياكوف**، أخوهم غير الشقيق، الذي يعامله أبوهم كأنه مجرد خادم.

عندما يقع ديميتري في حب امرأة بخلاف خطيبته، ويسعى لكي يحصل على المال الذي يحتفظ به والده بعيدًا عنه، تشتد **الخلافات** الأسرية بشكل غير مسبوق.

هل يستطيع ألوشا أن يرقق قلوب أفراد أسرة كارامازوف على بعضهم البعض قبل أن تحل الكارثة؟



لشراء النسخة الإلكترونية

القارئة جرير JARIR READER

Arabic edition published by Jarir Bookstore

يرجى زيارة موقعنا على الإنترنت
www.jarir.com

Adapted by: Gemma Barder
Licensor Sweet Cherry Publishing United Kingdom [2022]

ISBN 628-1072-14-461-6
6 281072 144616
282209001